جـمـيـل جبـر

في ذكراه الحيّه

هيـام مـلاّط

بـيـت شـبـاب

٢٣ آب ٢٠١٣

يخبئ القدر لكل واحد منا ما لا يمكن ان يتخيله إلا بعد حصوله. وقد شاء القدر ان أنشأ وأترعرع برعاية جدي شبلي ملاّط ما أتاح لي التعرّف عن قرب أو بالتواتر لأبرز وجوه نهضتنا الثقافية منذ أواخر القرن التاسع عشر، أذكر منهم في مستهل هذا اللقاء فيليب دي طرازي منشئ المكتبة الوطنية وجرجي نقولا باز منشئ مجلة الحسناء عام ١٩٠٨ وكرم ملحم كرم وسواهم.

ومن أعز الوجوه التي تعرّفت عليها في مستهل شبابي الدكتور جميل جبر الذي كان انتسب إلى إدارة سكة الحديد – أو كما كان يقال الـDHP – وكان والدي جورج وقبل دخوله القضاء عام ١٩٥٣ من بين موظفيها مع نخبة من الأصدقاء ومن بينهم المرحوم الرئيس الياس سركيس.

ان ميزة الصداقات الشريفة في مجتمعنا اللبناني هو انتقالها من جيل الى جيل. وإني أقف اليوم بينكم لإحياء ذكرى العزيز المرحوم الدكتور جميل جبر اجلالاً لذكراه وشهادة لصداقة نشأت في أواسط القرن الماضي بينه وبين والدي وقد امتدت إليّ من خلال معرفتي الشخصية به ومطالعة مؤلفاته.

كانت الـDHP في تلك الأيام أكبر من إدارة بل مدرسة ومؤسسة. تميّزت بكل ما يجب ان تتميز به المجتمعات الهادفة إلى الحداثة والتطوّر من دقة في الحضور وحسن التصرف وأداء الخدمة. وقد شكلت في تلك الأيام الهدف الذي كان يطوق إليه كل طامح إلى اكتساب فن الإدارة قبل ممارسته إياها في المجالات الواسعة للخدمة العامة. لذلك كانت الـDHP تجمع نخبة مجتمعنا اللبناني ولقد بقيت لغاية عشية اندلاع الحرب اللبنانية الرمز النيّر من تراثنا الإداري الذي نشأ في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر.

شاءت الظروف ان أتعرّف على الدكتور جميل جبر وهو برفقة والدي خلال لقاءته مع جدي شبلي في مناسبات عائلية وثقافية. واني لا أنس هذا اللقاء الذي أراد جميل جبر من خلاله ان يجمع أصدقاءه في منزله في أوائل الخمسينات من القرن الماضي في بيت شباب، القرية العزيزة على قلب كل واحد منا وهي التي أعطت لبنان نخبة من المفكرين والأدباء والمؤرخين والعاملين في الحقلين العام والخاص.

وقد تطوّر هذا المشوار مع جميل جبر رحمه الله عندما رغبت وأنا لا أزال طالباً ولوج باب الكتابة. وإني أذكر انه بين أعوام ١٩٦٠ – ١٩٦٣، وعندما كنت طالباً في الكلية العامة في الجامعة الأميركية ومهتماً بالشأن الثقافي من خلال النشرة التي كانت تصدر عن طلابها تحت عنوان "صدى النادي" بإشراف أستاذ الجيل جبران مسعود حفظه الله أخذت أتردد على جميل جبر في مكتبه في بناية الـDHP الكائنة في شارع سوق الطويلة في بيروت القديمة المليئة بالتاريخ والذكريات. وكانت البناية القائمة في هذا الشارع

التراثي تراثية بحد ذاتها حيث كان ينتاب الشخص الذي يهمّ بالدخول إليها شعور بأنه يضع قدميه بين أقدام من أدّوا واجبهم للوطن وللمجتمع. فمن الدرج الواسع والطويل والى المصعد الذي تآكله الدهر إلى الغرف الفسيحة المنورة، كانت الـDHP مؤسسة بكل معنى الكلمة.

وإني أذكر لغاية اليوم دخولي المبنى في نهاية عام ١٩٦٠ راغباً في لقاء الدكتور جميل جبر في مكتبه طالباً مساعدته في تزويدي بالأفكار والأخبار الثقافية والأدبية للاستفادة منها في مجلة "صدى النادي". وأذكر أيضاً ولا يمكنني أن أنسى تلك الغرفة التي دخلتها حيث كان جالساً على مكتب مغطى بالصحف والأوراق والكتب وكاد يختفي تحت هذا الكمّ من "الثقافة".

وهنا وفي هذه الغرفة مع غرفة أخرى مجاورة حيث كان يمتد النظر على طاولات مليئة بالكتب، كان جميل جبر يقوم بواجبه الوظيفي ولكن أيضاً برسالته الأدبية والثقافية، ان من خلال إشرافه على مجلة "الحكمة" في عهدها الثاني بين ١٩٥٩ و١٩٦٥ وان في الكتابة ونشر مؤلفاته. ومع مرور الأيام، تبدو لي هذه اللقاءات التي جمعتني مع الدكتور جميل جبر كرحلة ثقافية في ماضي نشأة حركتنا الفكرية والأدبية من خلال إشرافه على مجلة الحكمة. ان شهادة جميل جبر من خلال مراجعة هذه الأعداد الفنية والمشوقة تعبر اليوم عن غزارة المعرفة وصدق الشهادة في إحياء هذا المجتمع وكان ملتزماً بها التزام ضميره الحيّ المشرف على حقبة مميزة من تاريخنا الثقافي. وإني أدعو اليوم المفكرين والباحثين والمثقفين لمراجعة هذه السنوات من مجلة "الحكمة" التي كرسّ لها جميل جبر ما كان يخالجه من التزام ومحبة وصدق في تثبيت صفحة مجيدة من حياتنا الثقافية.

كان جميل جبر يكتب بصورة عامة افتتاحية لكل عدد من أعداد المجلة ومن مراجعة هذه المجموعة الثمينة التي احتفظ بها في مكتبتي الخاصة، لا بدّ من الإشارة الى أمرين:

- الأمر الأول: الدهشة أمام عدد الكتاب الذين كتبوا في هذه المجلة وغزارة المواضيع التي عالجتها في مختلف المجالات الثقافية من أدبية وفلسفية وتاريخية وفنية. ان أبرز مؤلفي كتّاب لبنان والعالم العربي وجدوا منبراً لهم من خلال هذه المجلة وهي منارة حقبة الستينات في لبنان – هذه الحقبة التي كانت بمثابة عهد ذهبي للبناننا والتي تميزت بنوع من الاستقرار والإبداع وحلو الحياة.

- الأمر الثاني: التزام جميل جبر من خلال افتتاحياته بالانفتاح على جميع التيارات – خاصة وان العالم العربي كان في غليان عقائدي وفكري وأدبي وانني أعود هنا فقط إلى افتتاحيتين رغب فيهما جميل جبر توضيح رؤيته لدور الثقافة في تقدم مجتمعنا.

ففي مقالته الافتتاحية للعدد الأول من العهد الثاني لمجلة الحكمة في عام ١٩٥٩ كتب جميل جبر تحت عنوان "رسالتنا مؤكداً" ان معطيات هذه الرسالة هي (والكلام لجميل جبر) "من وحي لبنان المؤمن بالحرية والسلم والحقيقة والتعاون البشري وهي أبواب مشرعة على المعمور بشرقه وغربه وشماله وجنوبه إذ التيار الأدبي كالنسيم ان حبس فسد. ومنبر حرّ تلتقي عليه الأفكار البعيدة عن كل عصبية سياسية أو مذهبية فتتقارب أو تتصارع في جوّ من الرحابة السمحاء".

وفي الافتتاحية لعدد آذار ١٩٥٩، كتب جميل جبر في موضوع إمكانية إنشاء رابطة للأدباء قائلاً "أما الأسباب التي حالت دون عيش مثل هذه الرابطة فأهمها السياسة وما إليها وعنها من أغراض وثغرات، ثم حب الذات والرغبة في الظهور والتوظف..." طالباً إنشاء أمانة للثقافة في وزارة التربية.

وخلال هذه الحقبة بالذات، كنت أول المستفيدين من مؤلفاته التي أصدرها منها "قلق"، و"الأدب الأمريكي في مختلف عصوره " – وذلك بعد كتاباته عن أمين الريحاني وجبران خليل جبران مع مؤلفات أخرى التي لا أزال أحتفظ بها بتوقيعه عليها إلى جدي شبلي أو والدي أو إليّ شخصياً.

ولا بدّ من الإشارة إلى ان ثقافة جميل جبر والتزامه الدؤوب في حقلي الأدب والثقافة والصحافة ان في مجلة الحكمة أو كتاباته على صفحات الصحف ومنها خاصة "الأوريان الأدبي" التي تبقى نموذج يحتذى به لتلك المشاريع الثقافية التي قامت في تلك الفترة جعلته الانسان القريب والجاهز دائماً للمساعدة من قلبه وباندفاع تام خدمة لرؤيته الثقافية الهادفة لإحياء طاقات مجتمعنا اللبناني.

ان الحوار الثقافي مع شخص جميل جبر لم ينقطع يوماً بالرغم من الظروف وتبدل الأوضاع. فالصداقات المجذّرة في القلوب لا تزال تترعرع وتشمخ مع الأيام بقدر ما للتقدير والمحبة من دور في تغذية تلك الجذور.

وإذا كانت الثقافة مشوار جميل جبر في الحياة فانه مع زوجته العزيزة جاكلين المبدعة في الفن وولده قيصر خير مؤتمنين على هذا الإرث الثقافي الذي رغبت ان ألقي بعض الضوء عليه من خلال لقاءاتي الخاصة معه في أوائل الستينات من القرن الماضي وهو في حراك ثقافي تميّز بالالتزام والتصرّف الشريف والانفتاح على الآخر والشهادة الملتزمة بحضارة لبنان ودوره المميز في المجتمع الشرق الأوسطي.

ان تكريم جميل جبر اليوم واستذكاره مع ابنته المبدعة جهان هو سبب لتشجيع الأعزاء جاكلين وقيصر والمحبين معهم ان يثابروا على خطاه في الالتزام برسالة لبنان المميزة لكي لا نفقد الأمل بعد غياب عزيزنا جميل جبر وحضوره الحي بيننا من خلال الكلمة التي أحبها وهي منارة الحياة التي تسمح لكل منا بعبور الزمن خاصة عند تردي الظروف والدهور.